الفصل التاسع
قدامة بن جعفروالأثر اليوناني في كتابه نقد الشعر

يعد قدامة بن جعفر(٣٣٧هـ) احد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء، وممن يشار اليهم بالبنان في علم المنطق ؛ وله في تاريخ النقد العربي مكانة لا يمكن أغفالها لأمرين :
الأول - كتابه (نقد الشعر) يعد أول محاولة منهجية لدراسة الشعر على أساس نظري واضح ومتكامل .
الثاني - كونه من أوائل النقاد الذين تأثروا بشكل أو بآخر بالأفكار الأرسطية في الشعر .

اثر ثقافة قدامة في نقده :

كان لثقافة ابن قدامة الفلسفية والمنطقية اثر واضح في نظرته الشاملة الى الشعر ، بصفته علما أو صناعة - كما يقول - وأبعدته هذه النظرة الشاملة عن النزعة التجزيئية الذوقية ، التي ميزت بعض الاتجاهات النقدية السابقة عليه ، وكانت هذه الثقافة هي التي فتحت الباب إمام التأثير اليوناني بعامة ، والتأثير الارسطي خاصة ، وكان للمنطق اثرٌ كبير في تأليف الكتاب وتبويبه وتقسيمه ، وفي أساليب حصر المعاني ، وتحديد معنى الشعر خاصه.
ان هذه الثقافة مكنته من دراسة القواعد العامة للنقد العام بصفته علما ، واطلقته من إسر التشيع للقديم ليعالجه بوحي فلسفته ، إلا أنها في الوقت نفسه ، أبعدته عن دراسة الشعر بصفته فنا ، لا يخضع للتقنين الشديد والحصر المنطقي ، وجعلت كتابه أشبه ما يكون بالهيكل المنطقي .

سبب تاليف قدامة كتابه (نقد الشعر):

عني النقاد - قبل قدامة - بوضع الكتب في نقد الشعر ، على اعده علما يختص بوزن الشعر وعروضه أو قوافيه ومقاطعه وغريب لغته أو معانيه والمقصود منها ، ولم يجد أحدا - حسب قوله - وضع كتابا في نقد الشعر ، وتخليص جيده من رديئة ، فلما تبين ان الكلام في هذا الأمرا خص بالشعر من سائر الأسباب الأخرى ، وان الناس قد اقتصروا على وضع كتاب فيه ، رآى ان يتكلم في هذا الوجه من النقد ويفصل القول فيه .

مهـــــمة النقد عند قدامة :

ان مهمة نقد الشعرعند قدامة لا صلة لها بعروضه ، أو أوزانه أو لغته ، فهذه ليست من جوهر الشعر - حسب رأيه - ولا تساعد على الكشف عن الشعر بصفته شعرا ، فالحديث في اللغة والغريب والمعاني ، يحتاج إليه في الشعر، كما في النثر ، وليس مقصورا على الشعر وحده ، واما علم العروض والقافية فمع أنها تخص الشعر دون النثر ، إلا ان معرفتها والعلم بها ليس ضروريا ، فقد كان الشعراء يقولون الشعر قبل ان يعرف علم العروض والقافية . إن قدامة كان يرد هذا الذي قاله على ما كان يجري عليه النقد في

عصره أو قبله ، إذ لاحظ ان النقد اتجه الى اللغة يزنها بميزان الخطا والصواب ، والى المعاني يقومها على نحو جزئي ، لا يرتبط بما قبله وما بعده ، وصار الحكم على اللفظة أو العبارة أو المعنى حكما عاما على الشعر، وليس في هذه الأموربشيء يخص نقد الشعر كثيرا ، إما نقد الشعر عند قدامة : فهو تمييز جيد الشعر من رديئة ومعرفة هذا تحتاج علم دقيق بطبيعة الشعر .

تعريف الشعر عنــدقدامة:

بعد ان حدد قدامة مهمة نقد الشعر، وهو تمييز جيد الشعر من رديئة ، بدأ بتعريف الشعر والذي هو عنده ((قول موزون مقفى يدل على معنى)) ، وهذا تعريف جامع مانع كما يقول أهل المنطق ، فقد جعل الشعر قولا خصه بالوزن ، لان من القول ما ليس بموزون ، ثم خص الوزن بالقافية ، تمييزاله عن غير المقفى، ثم خصه بالدلالة على المعنى ، فاخرج بذلك الكلام الذي لا يملك تلك الخصائص ، فمع ذلك فالتعريف يخلو من إي إشارة الى الخيال والصورة ، وهما مما لا يخلو إي شعر منهما ، فهو ينصرف الى النظم الذي منه المنظومات العلمية ، أكثر من ان ينصرف الى الشعر.

المـعاني في الشـعـر:

حاول قدامة ـ في حديثه عن المعنى ـ ان يحصر المعاني الشعرية في إغراض ، ويحدد هذه الإغراض على نحو يوحي بأثير يوناني ، فهو أول ناقد حصر أغراض الشعر ، وتتبع معانيه ، وإنه في هذا قد تأثربأرسطو ، والواقع ان قدامة كان يقدر صعوبة حصر المعاني ، لأنه مما لانهاية لعدها ، لذلك رأى ان يحصرها في الاغراض وقد حدد تلك الإغراض بستة:(المديح ـ الهجاء ـ النسيب ـ الرثاء ـ الوصف ـ التشبيه)، وقد حصر معاني الشعر بهذه المعاني الستة بسبب كون الشعراء كلهم أو بعضهم ، يدورون في إطارها ، ولا يخرجون عنها إلا ما ندر.

إغراض الشـــــــــــعر عند قدامة:

قدم قدامة بن جعفر الحديث عن غرض المديح على سائر الإغراض الأخرى ، لأنها في واقع الحال ـ حسب رأيه ـ صور أو مظاهرلحقيقة المدح أو جوهره ، فالغزل مثلا صورة من صور مدح المرأة، والرثاء صورة من صور مدح الميت ، أما الهجاء فهو نقيض المدح ، فالمدح يقوم على إضفاء الصفات الايجابية على الممدوح ، والهجاء هو سلب هذه الصفات.

فأساس الشعر واصله هو المدح ، وهو يقوم على الفضائل النفسية الأربعة التي حددها قدامة متأثرا بأرسطو وأفلاطون ، وهذه الفضائل هي (العقل ـ الشجاعة ـ العدل ـ العفة).

فالشاعر الذي يمدح الرجال بهذه الخصال الأربع ، يكون مصيبا والمادح بغيرها يكون مخطأ حسب رأي قدامة.

المدح والفضائل النفسية:

تنتظم معاني المدح عند قدامة بفكرة أساسية هي المدح، الذي لا يكون إلا بذكر الفضائل النفسية الأربعة (العقل ـ الشجاعة ـ العدل ـ العفة)، وقد يبدو للدارس ان حصر معاني المدح بهذه الفضائل تقييد شديد لا مسوغ له ، كما انه يطابق ما كان عليه شعر المدح ، ولذلك عمل قدامة الى ما يرى انه توسيع نطاق هذه الفضائل عن طريقين هما :

١. الاشتقاق

٢. التـــركيب

فأماالاشتقاق : فقد اشتق مثلا من فضيلة العفة فضيلة (القناعة ـ قلة الشره ـ طهارة الثوب)،ومن فضيلة الشجاعة اشتق فضيلة (الحماية ـ الدفاع ـ الأخذ بالثار ـ النكاية بالأعداء- المهابة ـ قتل الإقران)، واشتق

من العدل فضيلة (السماحة ـ وإجارة السائل ـ قري الاضياف)، واشتق من العقل (ثقابة المعرفة ـ الحياء ـ البيان ـ السياسة ـ الكفاية ـ الصدع بالحجة ـ العلم ـ الحلهم عند سفاهة الجهلة).

وإما التركيب: عن طريق الجمع بين (العقل والشجاعة)تتولد فضليه الصبرعند الملمات ، وينتج من تركيب(العقل والسخاء) فضيلة انجاز الوعد وما شابه ، وينتج عن التركيب بين (العقل والعفة) فضيلة الرغبة عن المساءلة والاقتصار على أدنى معيشة وهكذا.

ولذلك فان قدامة ـ كما يبدو واضحا ـ أجهد نفسه في حصر معاني المدح ، أولا بالفضائل الأربع ، وقد أجهدها أكثر بفكرة الاشتقاق والتركيب.

يربط الدارسون بين حديث قدامة عن الفضائل النفسية ، وبين الأثرالأرسطي عنده ، فيقولون ان أوضح اثر لكتاب أرسطو (الخطابة) هو في الحديث عن الفضائل النفسية ، لكن احد الدارسين يرى ان الشعر العربي يمدح الرجال بالسخاء والشجاعة والعفة وغيرها من الفضائل النفسية الأخرى ، فلا بد ان قدامة كان يستقرى الشعر العربي ، ويستنبط منه القواعد التي تحكم شعر المدح ، فلا يكون وحده ذلك دليلا على تأثرقدامة بأرسطو ، فلو كان متأثرا بأرسطو لأشار الى المدح بالمحاسن الجسمية التي تحدث عنها أرسطو ولم يشر إليها قدامة.